

مختصر ابن كثير

9 - يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا .

10 - إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون .

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرا من أشرف يهود بني النضير الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خيبر منهم (سلام بن أبي الحقيق) و (سلام بن مشكم) و (كنانة بن الربيع) خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشرف قريش وألبوهم على حرب النبي صلى الله عليه وسلم ووعدهم من أنفسهم النصر والإعانة فأجابوهم إلى ذلك ثم خرجوا إلى غطفان فدعوه فاستجابوا لهم أيضا وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدهم (أبو سفيان) صخر بن حرب وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر والجميع قريب من عشرة آلاف فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق وذلك بإشارة سلمان الفارسيه عمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب وحفر وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريبا من أحد ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة كما قال الله تعالى : { إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم } وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم نحو العدو والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم وجعل النساء والذراري في آطام المدينة وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة ولهم عهد من النبي صلى الله عليه وسلم وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم (حيي بن أخطب) فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال كما قال الله تبارك وتعالى : { هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا } ومكثوا محاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قريبا من شهر إلا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال ثم أرسل الله على الأحزاب ريح شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين كما قال الله : { يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا } قال مجاهد : وهي الصبا ويؤيده الحديث الشريف : "

نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور " .

وقوله تعالى : { وجنودا لم تروها } هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف فكان رئيس كل قبيلة يقولك يا بني فلان إلي فيجتمعون إليه فيقول : النجاء لما ألقى D في قلوبهم من الرعب روى مسلم في صحيحه عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان B فقال له رجل : لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلت معه وأبليت فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا رجل يأتي بخبر القوم يكون معي يوم القيامة " فلم يجبه منا أحد ثم الثانية ثم الثالثة مثله ثم قال صلى الله عليه وسلم : " يا حذيفة قم فأتنا بخبر من القوم " فلم أجد بدا إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال : " ائتني بخبر القوم ولا تدعهم علي قال فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار فوضعت سهما في كبد قوسي وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تدعهم علي ولو رميته لأصيبته قال : فرجعت كأنما أمشي في حمام فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائما حتى أصبح فلما أن أصبحت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قم يا نومان " (أخرجه مسلم في صحيحه) .

وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة قال : ذكر حذيفة B مشاهدتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جلساؤه : أما والله لو شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا فقال حذيفة : لاتمنا ذلك لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعودا وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقريظة لليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا في أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمة ما يرى أحدا أصبعه فجعل المنافقون يستأذنون النبي A ويقولون : إن بيوتنا عورة وما هي بعورة فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ويأذن لهم فيتسللون ونحن ثلثمائة أو نحو ذلك إذا استقبلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا رجلا حتى أتى علي وما علي من جنة العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتني قال فأتاني A وأنا جاث على ركبتني فقال : " من هذا ؟ " فقلت : حذيفة قال : " حذيفة ؟ " فتفاصرت الأرض فقلت : بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم فقممت فقال : " إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم " قال : وأنا من أشد الناس فزعا .

وأشدهم قرا قال : فخرجت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم A : " اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته " قال : فوالله ما خلق الله تعالى فزعا ولا قرا في جوفي إلا خرج من جوفي فما أجد فيه شيئا قال : فلما وليت قال A : " يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئا حتى تأتيني " قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد

فإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خصرته ويقول : الرحيل الرحيل ولم أكن أعرف أبا سفيان قيل ذلك فانتزعت سهما من كنانتي أبيض الريش فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار فذكرت قول رسول الله ﷺ : " لا تحدثن فيهم شيئا حتى تأتيني " قال : فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت المعسكر فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون : يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم بها ثم خرجت نحو النبي A فلما انتصفت في الطريق أو نحو من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارسا أو نحو ذلك معتمين فقالوا : أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم فرجعت إلى رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم وهو مشتمل في شملة يصلي فوالله ما عدا أن رجعت راجعني القر وجعلت أقرقف فأومأ إلي رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي فدنوت منه فأسبل علي شملة وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى فأخبرته خبر القوم وأخبرته أنني تركتهم يرتحلون وأنزل الله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذا جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا } (أخرجه الحاكم والبيهقي في دلائل النبوة) ولأبي داود : وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى (أخرجه أبو داود في سننه) وقوله تعالى : { إذا جاءكم من فوقكم } أي الأحزاب { ومن أسفل منكم } تقدم عن حذيفة B أنهم بنو قريظة { وإذا زأغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر } أي من شدة الخوف والفرع { وتظنون بالله الظنونا } ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين وقال محمد بن إسحاق : ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال (معتب بن قشير) : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلا الغائط وقال الحسن في قوله D : { وتظنون بالله الظنونا } ظنون مختلفة ظن المنافقون أن محمدا A وأصحابه يستأصلون وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ﷺ ورسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون وعن أبي سعيد B قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال رسول الله ﷺ : " نعم قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا قال : ف ضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح (أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الإمام أحمد بمثله)